على هامش الرحلة الى انجلترا (*)

للأستـــاذ احمد محمود سالم

أستاذ الزراعة المساعد بالمعهد الزراعى العالى بشبين الكوم

حضرات السادة :

طلب إلى الكثير من أهل الرأى فى هذا البلد الكريم أن أتحدث إلى حضراتكم عن مشاهداتى فى أثناء رحلتى إلى بعض بلاد أوربا فى صيف هذا العام ، وكان لزاما على أن أجيبهم إلى طلبهم، لأنى وجدته بعض الواجب على نحو هذا الإقليم الذى عشت فيه أكثر من ستة عشر عاما .

ولست أدعي ، وقد أمضيت فى انجلترا خمسين يوما ، أننى أصبحت أحق الناس بالكلام عن الانجليز فى بلادهم ، ولاشك أن هناك من بين حضرات الزملاء أو من غيرهم ممن أتيحت لهم فرصة زيارة هذه البلاد أو الاقامة فيها من هم أحق منى بالكلام فى هذه الناحية ، وإنى لذلك أعتذر لهؤلاء الزملاء إذا كنت قد استبحت لنفسى حقاً هم بلا شك أولى منى به ، وواجبا هم أقدر منى على أدائه .

والحقيقة كما ذكرت أننى إنما ألبى رغبة كريمة بدت من أهل هذا البلد فى الاستماع إلى حديث رجل نشأ بين ظهرانيهم وأمضى زهرة شبابه بينهم ، ومن حقهم عليه أن يطلبوه للكلام ، ومن الواجب عليه أن يطيع حين يجد نفسه قادراً عليه .

السفر الى أوربا والعودة منها :

لم نكن مقيدين بوسيلة معينة للسفر ، وكان لنا أن نتخير إحدى الوسائل التى تتفق وظروفنا ، فإتفقت وحضرة زميلى فى الرحلة على أن يكون ذهابنا بطريق البحر وعودتنا بطريق الجو ، وكنا فى ذلك موفقين غاية التوفيق ، لأن رحلة البحر علاوة

(*) القيت بنادى المنوفية فى ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٤٤ بدعوة من مجلس إدارة النادى

على أنها كانت ممتعة ، فهى كذلك فترة استراح فيها أمثالنا من المسافرين الذين باشروا بأنفسهم إعداد كل ما اتصل بسفرهم ، وليس هذا هينا . ويكفى أن أشير هنا إلى أنى قد ترددت على أكثر من خمس مصالح اختصت كل منها بأكثر من ثلاثة مشاوير ، كل ذلك فى سبيل الحصول على جواز السفر .

وهذا مضافاً إلى أن جو الباخرة وظروفها قد أتاحت لنا فرصة معرفة الكثير من تقاليد الأجانب وعاداتهم ، وهو ما اتضحت لنا أهميته بل ضرورته قبل النزول إلى بلاد الانجليز والاختلاط بهم والاندماج بينهم .

استغرقت رحلة البحر حوالى العشرة أيام من مدينة « بورسعيد » إلى ميناء « سوثهمبتن » فى جنوب انجلترا ، ولم تقف الباخرة بنا فى غير ميناء جبل طارق ، وقد بلغته بعد ستة أيام تقريبا وتراوحت سرعة الباخرة بين ١٢ و ١٥ ميلا فى الساعة ، وتعد هذه السرعة بطيئة نسبياً بالقياس إلى سرعة البواخر الحديثة التى تصل سرعتها فى الغالب الى حوالى ٢٠ ميلا .

بلغنا الشاطىء الانجليزى فى تمام الساعة الثامنة من صباح اليوم العاشر لسفرنا ، ولكننا لم نغادر الباخرة إلا بعد أن انتهت جميع الاجراءات التى تتخذ عادة حيال الأجانب الوافدين على بلد جديد ، وقد تناولت هذه الاجراءات خمسمائة من ركاب الباخرة وتمت فى منتهى السرعة والبساطة وفى أقل من خمس ساعات .

أما عودتنا فقد كانت بطريق الجو ، وقد استغرقت الرحلة من « امستردام » الى القاهرة تسع ساعات كاملة لم نشعر خلالها بغير الخوف الذى يتمالك عادة المسافر بالطائرة لأول مرة . والسفر بالطائرة تتحقق معه رغبة رجال الأعمال فى قضاء مصالحهم على أسرع صورة مع الراحة التامة . وحين يتم الكشف عن طريقة يمتنع معها وصول صوت المحركات إلى آذان المسافرين بالطائرة يصبح السفر بها أكثر راحة من الباخرة علاوة على ميزة السرعة التى تتوفر بها ولا تتوفر بالأولى .

الريف الانجليزى :

غادرنا « سوثهمبتن » حوالى الساعة الرابعة من مساء يوم الوصول فى قطار خاص

بعثت به مصلحة سكة الحديد لنقل ركاب الباخرة الى « لندن » وما أن خرج القطار من منطقة الميناء حتى وجدناه يسير بدون توقف ساعتين كاملتين وسط الريف الانجليزى .

ولقد تمنيت ان أكون ممن ينظمون الشعر أو ممن قد بلغوا شأوا فى البيان لأصف لكم شعورى لأول وهلة حين شاهدت هذا الريف العظيم ، ولكنى كرجل فلاح أكتفى بأن أضع امام حضراتكم خطوطا رئيسية تمثل لكم بعض نواحى الحياة فى هذا الريف الجميل .

ويهمنى قبل أن أدخل فى التفاصيل أن أتوجه بالرجاء إلى رجال لغتنا العربية ليشتركوا معى فى البحث عن لفظة تدل دلالة صحيحة على ريفنا المصرى ، فإن من العبث أن يكون معنى لفظة الريف فى بلاد الانجليز هو : القوة والصحة والجمال والعلم ثم يظل معناها فى مصر : الضعف والمرض والبؤس والجهل .

يقطن الريف فى بلاد الانجليز ملاك الأراضى الزراعية والعاملون فيها وكثير من أهل المدن ، والانجليزى الذى لا تتيسر له الإقامة الدائمة فى الريف نجده دائما يتردد عليه فى إجازاته الاسبوعية ولا يعتبر نفسه قد استمتع بهذه الاجازة إذا أمضاها فى غيره . وهم عادة يطلقون على أيام الاجازات التى يمضونها بعيدا عن الريف Lazy Day وهذا طبعاً عكس الحال فى مصر ، فكثيراً مايفضل أعيان القرى السكنى فى المدن القريبة منهم .

ومالك الأرض والعامل فيها كلاهما يستمتع بمسكن جميل ولايختلف مسكن الواحد منهما عن الآخر الا فى المساحة ، فبينما يحتوي مسكن العامل على حجرتين أو ثلاثا نجد منزل المالك يحتوى على خمس حجرات او ست ، ولكنها جميعاً تتشابه فى نوع الأثاث الفاخر . وفى كلا المنزلين نجد المطبخ الفخم والحمام المعد بأدواته والمرحاض الصحى والمدفئة ، وجميعها تعتمد على التيار الكهربائى الرخيص الذى يتراوح ثمن الكيلووات منه بين مليم ونصف ومليمين ، والحديقة هناك يتحتم وجودها بكل مسكن مهما قلت مساحته .

وتقام المبانى كلها فى الريف من الطوب الأحمر والخرسانة المسلحة . والسقوف هناك من النوع المائل المغطى بالقرميد ، وكل ذلك للوقاية من الأمطار التى تسقط فى أغلب أيام السنة .

الطرق الزراعية :

تتخلل الريف الانجليزى شبكة من الطريق مرصوفة رصفا جيداً ، ولا أبالغ إذا قلت إن هذه الطرق مرصوفة بطريقة تجعلها تفضل الكثير من شوارع القاهرة ، ولا أدل على ذلك من أننا كنا نمضى فى الزيارة طول النهار ونقطع مئات الكيلومترات فى سيارة خاصة أو فى إحدى السيارات العامة التى تجوب الريف ثم نعود الى « لندن » ولسنا فى حاجة إلى مسح وجوهنا أو ملابسنا لإزالة الأتربة التي تضايقنا فى مصر ويعلق الكثير منها بملابسنا وأجسامنا حينما نقطع بضع كيلومترات فى أحياء القاهرة .

المواصلات :

والحديث عن الطريق لا بد يجرنا إلى الكلام عن المواصلات ، وسأكتفى هنا بالإشارة إلى طرقها البرية وهذه فى الجملة لا تخرج عن الموجود منها فى مصر ـ قطارات سكك حديد ، سيارات عمومية ، سيارات خاصة . وفى الريف يستخدمون العجلات بشكل ملحوظ . ولم يقع نظرى على عربة من عربات « الحنطور » وفضلا عن ذلك توجد بمدينة « لندن » قطارات تسير تحت الأرض ، وفى بعض أحيائها لا يزال يستخدم الترام وإن كان فى سبيل الاختفاء .

ويدهشكم ان تعلموا ان بلندن وحدها ١٤ محطة سكة حديد تختص كل منها بحركة القطارات التى تجوب منطقة من مناطق تلك البلاد . ومن هذه المحطات ست فى حجم محطة القاهرة وبعضها تفوقها ، ويلفت النظر فى مواصلات انجلترا شيئان : أولهما كثرتها بحيث لا تشعر بازدحامها حتى فى مدينة لندن نفسها على الرغم من أن عدد سكانها فى الوقت الحاضر قد تجاوز العشرة الملايين .

وثانيهما ـ أنانها الفاخر النظيف ، ولا أبالغ إذا ذكرت أن مقاعد الدرجة الثانية فى كل من السيارات والسكة الحديد تفوق مقاعد مواصلات الدرجة الاولى بمصر .

اما أجور السفر فليست باهظة وليس الأساس فى تقديرها مضاعفتها فى التدرج من ادنى الى أعلى كما هو الحال عندنا ، بل إن الزيادة لا تعدو ٥٠ ٪ من قيمة الأجرة للدرجة الأدنى .

ولا توجد بقطارات سكة الحديد بانجلترا طائفة الكمسارية والمفتشين فالحاجة لا تدعو الى وجودهم ، ويندر جدا أن تجد انجليزيا يسمح لنفسه بالسفر فى عربة الدرجة الأولى وبيده تذكرة من تذاكر الدرجة الثانية . وأجور السفر ليست واحدة طول اليوم ، بل هناك فترات فى الصباح تكون الاجرة فيها مخفضة ، ذلك لان اكثر الركاب في هذه الفترة من العمال الذين تضطرهم ظروف العمل الى مغادرة المدن التى يقيمون فيها الى حيث مكان العمل الذى يزاولونه .

اما عن السيارات العامة فالموجود منها بمدينة « لندن » وحدها يقدر ببضعة آلاف ، وكلها من ذوات الطابقين ، ودخول الركاب إلى هذه السيارات ومغادرتها يتم فى منتهى النظام بحيث ينتظر كل راكب دوره ، ولا أذكر حالة واحدة حصل أن خرج فيها راكب على نظام الدور ، وليس أمر هذا النظام قاصراً على الركوب فى السيارات وانما هو دستورهم فى كل شىء ، فى البيع والشراء ودخول المطاعم وارتياد دور اللهو الخ . ويذكر لى احد اصدقائى أن فتاة كان تنتظر دورها فطال وقوفها ، وعلى الرغم من أنها كانت مريضة ويبدو عليها الهزال بشكل واضح إلا ان الجمهور ثار عند ما وجدها تتخطى دورها وألزمها بالعودة إلى مكانها الأول فى الصف . ولا بد لى فى هذا المقام من أن أسرد لحضراتكم واقعة يتكرر حدوثها بين ركاب السيارات العامة من الانجليز :

يتصادف أن يكون كمسارى السيارة مشغولا بقطع التذاكر لركاب أحد الطابقين ثم يكون هناك راكب من ركاب الطابق الآخر لم يكن قد دفع الأجرة بعد ، ولكنه وصل إلى حيث يشاء ، ويريد مغادرة السيارة فى غيبة الكمسارى ، فهذا الراكب يبادر بدفع الأجر الى أحد الركاب ويرجوه توصيله إلى الكمسارى والكمسارى بدوره يقطع التذكرة ثم يلقى بها فى سلة المهملات الملحقة بالسيارة . ولا أود التعليق على هذه الملاحظة وأمثالها وإنما اكتفي بالإشارة إليها وأرجو الله مخلصا أن يتحقق منها الكثير فى بلادنا .

بعض النواحى الاجتماعية فى حياة الانجليز :

كنت أحسب الانجليز جميعا كهؤلاء الذين يفدون منهم على مدارسنا الثانوية للاضطلاع بمهمة تدريس اللغة الانجليزية ، لا يهتمون لملبسهم ولا يعنيهم غير جمع المال الذى من أجله حضروا إلى بلادنا ويعودون الى بلادهم ، وكنت أظن انهم جميعا يتصفون بكثير من العجرفة والهدوء الذى يتطلبه احتلالهم لبلادنا ، ولكنى رأيت الواقع خلاف ذلك ، فالانجليز فى بلادهم لا يلبسون وقت العمل سوى الملابس التى تتفق وطبيعة العمل ثم تجدهم بعد ذلك فى وقت راحتهم يلبسون أفخر الثياب ، أما مانلاحظه فيهم من صفات أخرى لا تتفق مع مزاجنا الشرقى فهى صفات أصيلة فيهم فالانجليزى بطبعه لا يتكلم إلا إذا بدأته بالكلام ، وغالبا يكتفى بالرد عليك بأخصر عبارة وبصوت منخفض ، وقلما يصرف وقته فى مناقشات بيزنطية لا طائل تحتها ولا نتيجة لها ، وفى اعتقادى ان طريقتهم هذه تخفى وراءها صفة لا تبدو ظاهرة للكثيرين تلك هى صفة الغباء الذى يصاب به أكثرهم . والانجليزى لم يصل بعد إلى درجة الذكاء التى وصل اليها غيره ، وعلى الرغم من غبائهم الظاهر فإنهم دائمو الاطلاع يقرأون كثيرا وقلما تجد انجليزيا يصرف وقت فراغه فى غير القراءة أو الرياضة .

والانجليزى ينفق وقته فى العمل المنتج . وليس بينهم من يحاو . إضاعة الوقت فى غير ذلك أما أوقات فراغهم فهم فى الغالب يمضونها فى الرياضة ، وجلهم إن لم يكن كلهم تستهويه أكثر من رياضة واحدة . أما أيام الآحاد فهم يقضونها خارج المدن التى يعيشون فيها ، وتجدهم يحاولون التحرر من كل تقاليدهم ويخشون الأندية والملاهى بكافة أنواعها ويتجردون من كل شىء إلا المرح يهيئون له كل الأسباب لأنه يساعدهم على استئناف أعمالهم بنفس فتية لا فرق فى هذا بين الرجل والمرأة والغنى والفقير ، بل الكل يتجه إلى الوجهة التى تحقق رغبته فى نوع يألفه من المتعة والسعادة ، ويكاد يتفق الجميع فى هذه الأيام على نبذ الجد والإغراق فى اللهو كل حسب ميله واستعداده .

والانجليز الذين اشتهروا بالكبرياء يجيبونك إلى اسئلتك فى أدب ظاهر غير متكلف ، وهم كذلك يعاملون بعضهم بعضاً — ولم أشعر مطلقا بأن كبيراً — مهما سما مركزه أراد أن يفرض أوضاعا معينة أو يأمر بتنفيذها — إلا بعد أن يتحدث بشأنها إلى من

هم دونه ويكون الاقتناع من جانبهم هو الوسيلة للتنفيذ . والانجليز جميعا بلا استثناء يعرفون واجبهم نحو بلادهم ويحترمون النظام ويحافظون على المواعيد ولا يميلون إلى المبالغات التى نسرف فيها ، وإن كانوا منافقين أحيانا كثيرة . أما الحرية فمكفولة لهم ولجميع القاطنين بينهم ، ولا أدل على ذلك من تلك الاجتماعات التى نراها تنعقد أحيانا فى الحدائق العامه وأحيانا أخرى فى ميدان من الميادين فيقف فيها متحدث بين جمع من الناس ينتقد أعمال رئيس الحكومة مفندا ذلك ومدللا على صحة ما ذهب اليه بالبراهين بينما نجد إلى جواره مجموعة أخرى تستمع الى خطيب آخر يعيب سياسة معينة لحزب معين ، بينما تصغى مجموعة ثالثة إلى أجنبى يتحدث عن حقوق بلاده فى الاستقلال ويذكر فى صراحة أن الانجليز — وله أن يصفهم كما يشاء — هم الذين يقفون حجر عثرة فى سبيل حصولهم على الاستقلال المنشود ، وإلى جوار ذلك شاب وشابة قد افترشا الخضرة أو مالا على جذع شجرة يستجيبان إلى نداء قلبيهما الحبيبين وهما فى موقفهما الغرامى الجارف ليسا فى نظر التقاليد الانجليزية قد ارتكبا جرما يستحقان عليه حتى مجرد المؤاخذة . وتشهد الحدائق العامة من أمثال هذه المناظر الشيء الكثير كل يوم ، وإذا أنت تحدثت فى كل هذا إلى انجليزى وأخذت تنتقد هذه الظاهرة أجابك انها الحرية التى يجب ان تتوافر لجميع أفراد الشعب لا فرق فى ذلك بين الرجل والمرأة . وليست فى ذلك أية مسئولية وانما المسئولية هناك فقط على اللواتى يمتهن الدعارة ويتسكعن فى الشوارع والحدائق العامة ليلا للبحث عن طلبتهن وهؤلاء النسوة يراقبهن البوليس منعا لانتشار الأمراض بينهن وبين المخالطين لهم من الرجال .

وإذا كنا بصدد الكلام عن النواحى الاجتماعية بين الانجليز فإنى أرى الفرصة سانحة لكى أحدثكم عن مشروعين عظيمين بدأ تنفيذهما فى انجلترا وظهرت فوائدهما واضحة خصوصا بين جمهور الشعب .

أولهما — مشروع التأمين الصحى National Health Scheme ويتلخص هذا النظام فى ان كل إنسان يقيم فى البلاد الانجليزية له أن يتخير طبيبا عاما يسجل اسمه عنده ، ومن حقه بعد ذلك أن يتردد عليه كلما مرض ، واذا ما وجد هذا الطبيب أن حالة أحد مرضاه استلزمت الكشف عليه بمعرفة إخصائى أحاله إليه ،

وفى كل هذه الأحوال يحصل المريض على العلاج وعلى الدواء اللازم له مجانا وعلى حساب الدولة التى تدفع للأطباء حسابهم فى صورة مرتبات حسب عدد المرضى المترددين عليهم .

وهذا النظام العظيم لا أظنه يصلح أو يتفق مع ظروفنا فى مصر ، هذه الظروف التى جعلت البعض من أطبائنا ينتهزون الفرص مع الأسف الشديد لاتخاذ مهنتهم الكريمة أداة لجمع المال والثراء ، وأذكر أننى حادثت فى هذا النظام صديقاً لى من الأطباء المصريين كان معى بلندن وتمنيت لو أنه نفذ بمصر ، ولكنه حكم عليه مقدما بفشل محقق ، لأنه اعتبر أن قيام الطبيب بمهمته نظير مرتبات محدودة لا يجعله يخلص فى أداء واجبه على وجه تتحقق معه مصلحة مرضاه ، وشبه ذلك بالمترددين عندنا على المستشفيات الأميرية فإنهم لايجدون العناية الواجبة من أطباء هذه المستشفيات ، والواقع أننى سمعت ثناء عاطرا على هذا النظام لامن واضعى المشروع الذين يهمهم نجاحه ، ولكن من المنتفعين به الذين أصبحوا لايجدون صعوبات تحول بينهم وبين العلاج الصحيح الذى تعذر فى مصر فى الوقت الحاضر على الطبقة المتوسطة .

والمشروع الثانى هو التأمين الاجتماعى ، وهو أيضا نظام آخر يلزم كل إنسان يقطن « بانجلترا » — عدا طلبة المدارس — بأن يدفع للحكومة نصيباً معيناً يتفاوت مقداره بين الخمسة شلنات والعشرين شلنا فى الأسبوع . والحكومة التى تتقاضى هذه المبالغ تردها لأربابها فى صورة معاشات لهم ولمن يعولونهم فى حالة عجزهم عن العمل بسبب المرض أو الشيخوخة أو نحوهما ، وهذه المعاشات يتفاوت مقدارها بين العشرين شلنا للرجل وستة عشر للزوجة ، وشلنا واحدا لكل من أبنائها فى الأسبوع .

كل هذه النظم وما إليها أخذ بها الانجليز وأخلصوا فى تنفيذها لمصلحة جمهور الشعب الذى يعترف المسئولون بحقه فى الحياة الكريمة ، ولذلك قلماتجد مريضا يجوب الطرقات دون أن يلقى حقه فى علاج صحيح ، كما يندر وجود الشحاذين ولا أقول يمتنع وجودهم بين الانجليز ، فقد صادفت بعضهم فى أكبر شوارع العاصمة الانجليزية ، ولكن طريقتهم فى الشحاذة تختلف عن طريقة شحاذينا ، ذلك أن الواحد منهم يحاول أن يستجلب رضا المارة بأن يسمعهم بعض الأنغام على آلته الموسيقية ، وأذكر

بهذه المناسبة أنني كنت مرة قد انتظمت مع آخرين فى سياحة رتبتها شركة من شركات النقل فى « أدنبرة » ، ومرت السيارة فى طريقها بالريف الاسكتلندى الجميل بمنطقة من الشلالات امتازت بمناظرها الخلابة ، ولكن شيئا آخر أضفى على المكان روعة بالغة ، ذلك الشيء هو صوت موسيقى اختلط بخرير الماء وأنبعث من بين الأحجار الوارفة التى أحاطت بهذه الشلالات ، وكان مصدر الصوت آلة موسيقية فى يد شحاذ نال عطف جميع ركاب السيارة .

الاشتراكية الانجليزية :

وما دمنا بصدد الحديث عن النواحى الاجتماعية الشائعة بين الانجليز فإنى لن أدع الفرصة تفلت منى دون أن أحدثكم عن الاشتراكية الانجليزية كنظام اجتماعى له كل الفضل فى رفع مستوى المعيشة بينهم ، ويكفينى فى هذا المقام أن أشير إلى بعض الأنظمة المتبعة فى استغلال الأرض الزراعية ، كنت أحرص دائما كلما زرنا مزرعة مستغلة كانت أو ملحقة بمعهد من المعاهد الزراعية أن أوجه إلى المسئولين فيها أسئلة عن مساحة المزرعة ، ونسبة البور فيها إلى المعمور ، وطريقة استغلالها ، وتكاليف هذا الاستغلال ، وثمن الفدان فيها ، وايجاره السنوى إذا كانت المزرعة مع القائمين على شئونها بطريق الايجار .

والذى دفعنى إلى ترديد هذا السؤال أننى عجبت لأول مرة حين علمت أن الفدان الواحد الذى تحسنت ظروفه ، ولا يتجاوز ناتجه فى أغلب الأحيان ناتج زميله بمصر ويساوى من الثمن حوالى الـ ٢٥٠ جنيها لا يعدو ايجاره الأربعة جنيهات فى السنة .

ولما تأكدت من هذه الأرقام ، وأصبحت لا أشك فى صحتها أردت مناقشتها مع انجليزى مسئول ثم أناقشها مع نفسى بالنسبة للأوضاع الحالية فى بلادنا .

أما عرض الانجليزى للموضوع من ناحيته فلم يخرج الأساس فيه عن تلك النظرة الاقتصادية السليمة التى تستوجب اشتراك كل عناصر الإنتاج الزراعى فى ناتج الأرض .

هذه النظرة الاقتصادية ليست غريبة علينا ونؤمن بها ونرددها لطلابنا بين جدران المعاهد ، ولكنها لا تلقى بالا من المسئولين بمصر ، ولا تجد من يؤمن بحق العامل أو مدير المزرعة فى ناتج هذه المزرعة .

والانجليز وغيرهم يقفون من هذا الموضوع موقفا صحيحا ويتصورون تصوراً تاما قيمة الأرض من غير وجود العامل ومدير العمل . أما الحال فى مصر فعلى العكس من ذلك ، إذ أن عنصر الأرض فى نظر كثير من الملاك هو كل العناصر ، وغيره من عناصر الإنتاج الأخرى ليس شيئا مذكورا ، بل إن نصيبها يكون دائما ضئيلا بالقياس إلى نصيب الأرض ، فهى فى نظرهم كل شىء ، ويغالى كثير من الملاك فى هذه الناحية على حساب أجر العامل المسكين .

ولم تكن دهشة الانجليز بأقل من دهشتى حينما علموا أن الفدان الذى ثمنه فى مصر حوالى الأربعمائة جنيه يزيد ايجاره على الثلاثين جنيهـــا . وتمنوا لو عرفوا السبيل إلى تحقيق هذه الأرقام الخيالية عندنا مع حفظ حق العامل ومستأجر الأرض فى حياة كريمة ، ثم كيف تكون حرفة الزراعة مجزية تضمن للمشتغلين بها حياة معقولة إذا كان ايجار الأطيان على هذه الصورة وناتجها لايفوق ناتج الأرض لديهم .

وبمناسبة الأجور أذكر لحضراتكم أن الأجر الأدنى للعامل الزراعى فى انجلترا هو أربعة جنيهات أسبوعيا فى الوقت الحاضر ، بل إن هذا الأجر يتضاعف إذا كان العامل متزوجا فى حين أن زوجه تمارس غالبا عملا لايقل إيرادها منه عن ثلاثة جنيهات أخرى ، ومن هنا نرى كيف أن هؤلاء يعيشون فى مستوى يفوق كثيرا المستوى الذى يعيش فيه كثير من المتعلمين عندنا .

وإن ما ذكر عن انخفاض قيمة إيجار الأطيان وارتفاع أجور العمال الزراعيين ليس سوى وسيلة من وسائل الاشتراكية الزراعية ، وهناك وسيلة أخرى — ليست نتائجها بأقل من سابقتها — تلك هى الضرائب التصاعدية التى تفرضها الحكومة فى شكل نسب مئوية تعلو وترتفع كلما زاد الإيراد حتى لقد بلغت نسبتها فى بعض الأحيان ٩٥٪ من الإيراد ، وليست هذه الضرائب فى مصر شيئا مذكورا إذا قيست بمثيلاتها فى بلاد الانجليز ، ولكنهم هكذا اتجهوا فأمكنهم مواجهة وتنفيذ المشروعات التى يتطلبها عمران بلادهم . والسمو بمستوى المعيشة ليس متحققا فقط بينهم ، وانما هو موجود كذلك بين مواشيهم التى تتمتع بحياة هى أفضل فى كثير من الظروف من حياة الآدميين فى بلاد كثيرة .

المشكلة القائمة الآن بمصر :

والمشكلة القائمة الآن والتي لا يتحقق فى وجودها ذلك الخير الذى نرجوه لبلادنا العزيزة هى ارتفاع أثمان الأراضى وإيجارها ، ذلك الايجار الذى تعود الفائدة منه غالبا على فئة محدودة من ملاك هذه الأراضى أو كبار المستأجرين لها . أما صغارهم والعمال فأجرهم عند الله ، وسيظلون هكذا فى هذا المستوى الحقير الى أن تتبدل العقلية الحالية التى لا ترعى لهؤلاء المساكين حتما فى الحياة وحتى تصير لفظة « فلاح » مرادفة لغير لفظتى الجهل والحقارة .

ومهنة الزراعة فى « مصر » لا يزال ينظر اليها المتعلم على أنها آخر المهن التى يجوز له أن يعتمد عليها فى الحصول على رزقه أو يحتل عن طريقها مركزا ساميا بين الناس ولا أدل على ذلك من الاتجاه الحالى بين الطلبة وأولياء أمورهم الذين يفضلون إلحاق أبنائهم بأية كلية أو معهد إلا معاهد التعليم الزراعى . والحقيقة التى نلمسها ونلمسونها أن الإقبال الملحوظ فى الوقت الحاضر على هذه المعاهد لا يدل دلالة صادقة على ميول الطلبة وإنما يدل على أن الظروف اضطرتهم آخر الأمر إلى انتهاج هذا النهج الذى لا يتفق ورغباتهم .

والطلبة وأولياء أمورهم معذورون فى ذلك ، إذ يجدون الفلاحين ومن اتصل بهم آخر من يفكر فيهم أولو الأمر ، يضاف إلى ذلك أن مهنة الزراعة ليست مجزية كغيرها وفائدتها مقصورة فى مصر على ملاك الأراضى ومن فى حكمهم من كبار المستأجرين ، وهؤلاء نسبة ضئيلة إذا قيست بعدد صغار مستأجريها وعمالها الذين يكونون أغلبية سكان البلاد .

الزراعة فى انجلترا :

لعلكم تتصورون كما سبق أن تصورت أن الزراعة ببلاد الانجليز شىء ثانوى يأتى فى المقام الثانى بعد الصناعة التى اشتهر بها الانجليز ، لا فالحقيقة التى يؤيدها الواقع أن ٧٠ ٪ من مجموع العمال الانجليز يشتغلون بالزراعة ، والأرض الزراعية رغم أنها ليست مستوية وغالبا يتجاوز الفرق بين مناسيبها بضعة عشر مترا فى المنطقة الواحدة ، ورغم أن الزراعة تعتمد فى الغالب على الأمطار التى تسقط بغير انتظام ، ورغم سوء

الأحوال الجوية فى أكثر أيام السنة ، رغم كل هذه الظروف ، فإن الإنجليز يستغلون الأرض الزراعية استغلالا يفوق فى كثير من الأحيان استغلالنا لأطياننا التى امتازت بخصبها وبنظام الرى الذى انفردت به « مصر » ولا أظنه يوجد فى غيرها ، وفى اعتقادى أن الأسباب التى ساعدت الانجليز على الوصول إلى هذه النتيجة هى :

أولا — قيام البحوث الفنية فى مختلف المناطق وعلى مختلف الحاصلات والأخذ بأحدث الأساليب فى الاستغلال الزراعى ، ويساعدهم على ذلك كثرة نسبة المتعلمين بين فلاحيهم ، ولا أعدو الحقيقة إذا ذكرت أن ليس بين هؤلاء من يجهل أصول الزراعة الحديثة أو من لا يعلم آخر ما وصلت اليه نتائج البحوث الفنية والتجارب فى مختلف نواحيها .

ثانيا — اعتمادهم غالباً على الآلات فى فلاحة الأرض ، هذا الذى تتحقق معه إجادة عمليات الفلاحة مع الإقلال من تكاليف الإنتاج .

ثالثاً — وهو الأهم شعور المسئولين من الانجليز بواجبهم نحو مواطنيهم من حيث ضرورة اعتماد البلاد على حاصلاتها فى أوقات الحرب . وهم لذلك يستغلون كل شبر فى الأرض حسب ظروفه حتى إذا أعيتهم الحيل فى استغلاله بزراعة محصول معين فلا أقل من زراعته بالمراعى التى تتغذى بها المواشى التى تقوم تربيتها على أسس علمية سليمة ، امتازت عنترتها بوفرة انتاجها فى اللبن واللحم معاً أو فى أحدهما .

ومن الوسائل التى يتخذها الانجليز لمواجهة تلك الظروف القاسية التى تصادف بعض محصولاتهم فى أثناء إنباتها ، زراعة هذه المحصولات فى بيوت زجاجية تزود بمواسير يمر بها تيار من الماء الساخن أو البخار لتوفير درجة الحرارة التى تتناسب وطبيعة النبات المزروع ، وكما أن هذه الحرارة تلزم لنمو بعض الزروع فهى كذلك لازمة لاستكمال تجفيف بعض المحاصيل الأخرى كمحاصيل الحبوب . وهكذا نجد أن الطبيعة قد حبتنا بأشياء كثيرة لا نظنها قد حبدنا الله عليها أو استخدمناها لصالح زراعتنا .

ولا بأس هنا من أن أشير إشارة عابرة إلى أهم المحصولات التى تنتشر زراعتها فى بلاد الانجليز وهى : البنجر — ومنه صنفان : بنجر العلف ، وبنجر السكر ، وكلاهما يشبه فى مظهره اللفت ، ولكن فى حجم أكبر ، حتى لقد علمنا أن جذر بنجر العلف قد وصل

وزنه فى بعض الأحيان إلى عشرة كيلوجرامات ، أما نسبة السكر فى جذور بنجر السكر فتتراوح بين ١٥ و ٢٠ ٪ ، ومتوسط محصول الفدان من هذه الجذور نحو العشرة أطنان ، والبنجر هو المصدر الوحيد للحصول على السكر . أما البطاطس فهى محصولهم الرئيسى ، ذلك لأنه غذاؤهم المفضل ، وقلما تصادفك فى « انجلترا » أكلة ليس بين أصنافها البطاطس .

والقمح والشعير والشوفان تزرع فى مساحات كبيرة ، ويتجاوز محصولها فى الأرض الخصبة محصول مثيلاتها بمصر ، وكم كانت دهشتى حينما علمت أن محصول الحبوب لفدان القمح كان فى هذا العام حوالى طنين أو أربعة عشر إردباً .

ويزرع الانجليز الكثير من أصناف الخضراوات ، ومن أهمها وأكثرها انتشارا الكرنب والبسلة والطماطم وبعض أصناف المقاثى والمحصولان الآخران يزرعان غالباً فى بيوت زجاجية .

أما الفاكهة فلم أر منها غير أشجار التفاح والكريز والفراولة . والعنب يزرع كذلك فى البيوت الزجاجية ويأتى بمحصول طيب .

والمراعى تشغل جميع مساحة الارض التى لاتمكن زراعتها بمحصول معين ، وترعى عليها المواشى ، وكلها من الأبقار والخيول والأغنام والخنازير . والجدير بالذكر فى هذه المناسبة أن هذه المواشى تقضى الصيف كله ، ليلا ونهاراً ، فى هذه المراعى دون حراسة ودون رباط ، وهكذا نجد الحرية التى لم تتوفر للانسان فى بعض البلاد قد توفرت للحيوان فى بلاد الانجليز . أما فترة الشتاء فتقضيها المواشى داخل الحظائر خوفا عليها من البرد ، وفى هذه الأثناء تقتات على العلائق المركزة ، والشأن فى ذلك على العكس بمصر ، إذ تتغذى مواشينا على هذه العلائق المركزة فى الصيف .

التعليم الزراعى :

والكلام عن الزراعة لابد يجرنا إلى الكلام عن التعليم الزراعى ببلاد الانجليز . وليس هنا مجال الإفاضة فى نظم هذا التعليم ، ويكفى أن أشير إلى أنه على درجات ، وتتولاه المدارس والكليات ، وكثيراً ماتوجد لكل فرع من فروع التخصص

مدرسة خاصة ، وتختلف مدة الدراسة بين سنة وخمس سنوات لمن أراد مواصلة الدرس للحصول على أرقى الشهادات.

ويختلف التعليم الزراعى هناك عن التعليم الزراعى ببلادنا من نواح كثيرة أهمها .

أولا — قلة عدد مواد الدراسة وقصرها على ما يرتبط بفرع التخصص بمعاهد انجلترا بعكس كثرتها بمصر ، فإنها يستحيل معها استيعاب خريجينا لكل مايدرس لهم ويتبع ذلك ضعفهم الظاهر فى المواد التى يدرسونها . ويبدى أساتذة الكليات الزراعية بانجلترا دهشتهم حين يعلمون بحقيقة الحال عندنا من حيث كثرة عدد المواد التى يدرسها طالب الزراعة بمصر .

ثانيا — الاهتمام بنواحى التطبيق فى معاهد انجلترا أظهر منه بمعاهدنا ولا يضير الطالب الانجليزى ان يساهم بنصيبه فى تنظيف أرضية الاصطبلات والمعامل ، وهذا عكس ما لدينا بمصر ، اذ يرى طلابنا ان فى ذلك امتهانا لكرامتهم وافتئاتا على حقوقهم ، حتى العمليات الزراعية التى يحتاج أمر تعلمها وتعرف اساليبها الى الاشتراك فى أدائها نجد طلبتنا يرغبون عنها ويستنكرونها ، ذلك لأن القيام بها لا يتفق وتلك الأناقة التى امتاز بها الطالب المصرى الذى يجد غضاضة فى استبدال ملابسه الفاخرة بأخرى تتفق وظروف العمل الزراعى .

ثالثا — بقى فرق ثالث ومهم ، ولا يقتصر الحال فيه على معاهد العلم ، هو البساطة التى تتميز بها كل مصالح الحكومة . البساطة التى تستنكر وجود هذا الجيش العرمرم من السعاة والفراشين الذين يوجدون بمصر مظهراً من مظاهر الأبهة التى تتميز بها الوظائف الحكومية ، البساطة التى تتميز بها دور العلم والتعاون الوثيق الذى يربط المعاهد بعضها ببعض لخدمة العلم والانسانية ، ذلك التعاون الذى كدنا نفقده بمصر والذى حل مكانه للأسف ذلك التنابذ والتطاحن بين معاهد التعليم الواحد .

البحوث العلمية :

وما دمنا بصدد الحديث عن التعليم فلا أرى بأسا من أن أسجل هنا بعض آرائى عن البعوث العلمية . فقد زاد عدد المبعوثين الذين يدرسون فى الخارج زيادة كبيرة

فى السنوات الأخيرة ، ذلك لأن المسئولين من رجال الحكومة أدركوا حاجة البلاد الملحة إلى نوع من التخصص فى الدراسة ، كما أن الكليات والمعاهد أصبحت حاجتها ماسة إلى استكمال هيئات التدريس فيها بأشخاص توفرت لهم سبل هـذه الدراسة والرأى وإن اختلف على أيهما أفضل لمصلحة البلاد : أهو مواصلة إيفاد المبعوثين الى الخارج على هذا النطاق الواسع ، ام الحد من ذلك باستقدام أساتذة من الخارج تسد بهم النقص الواضح بين أعضاء هيئات التدريس بالكليات والمعاهد ثم تقصر البعثات على الدراسات التى لا نرى أساليبها قد توفرت بعد « بمصر » سواء صح هذا الرأى او ذلك ، وسواء رجحت كفة هذه النظرية أو تلك ، فموضوع اختيار عضو البعثة من وجهة نظرى يجب ان يحاط بضمانات كثيرة تجعل من البعوث أداة صالحة تستفيد منها البلاد سواء فى أثناء مدة إقامته بالخارج أم بعد عودته إلى بلاده . وفى اعتقادى أن الحال يجب ألا يقتصر على مجرد التفوق العلمى لحديثى التخرج ، بل يجب ان يختار العضو بعد ان يمضى فترة تمرينية لا تقل مدتها عن خمسة أعوام تلى تخرجه وتسبق سفره وتثبت فى أثنائها كفايته واستعداده فى ناحية البحث والاستقصاء كما تتوفر له فيها أسباب الوقوف على ظروف بلاده وما تتطلبه أوضاعها القائمة من تحسينات يظل امرها عالقا بمخيلته طول مدة دراسته وبعد عودته ، ويقف المسئولون خلال هذه المدة على سلوكه من الناحية الخلقية . ووجهة نظرى ان الخلق الكريم يجب ان يكون هو الأساس فى اختيار عضو البعثة ، ذلك لأن أول ضعف فى هذه الناحية يسىء غالبا الى سمعة مصر والمصريين جميعا . واذا كنت اعتقـد ذلك وأرى تحققه فى اختيار عضو البعثة ، فإنه يصبح واضحا بالنسبة لعضوات البعثات اللاتى يجب ان يقتصر إيفادهن على الضرورة القصوى والحاجة الملحة .

والواقع الذى لمسته فى مدة إقامتى القصيرة بانجلترا وأيده من اتصلت بهم من أعضاء البعثات ان بعض المبعوثين — وهم لحسن الحظ قلة — قد انصرفوا عن الدرس وبهرتهم ظروف البلاد التى اقاموا فيها واتجهوا اتجاهات لا تتحقق معها مصلحتهم ولا مصلحة بلادهم ، وليت الأمر وقف عند حد إساءتهم لأنفسهم بل اساءوا كذلك إلى بلدهم .

وهناك شىء آخر أراه جديرا بالنظر ، ذلك أن المسئولين بمصر لا يقيمون وزنا

لغير الدرجات العلمية التى يحصل عليها عضو البعثة من الخارج ، ولا أعدو الحقيقة إذا ذكرت ان كثيرا من البلاد الاجنبية لا يضيرها إطلاقا أن تمنح هذه الدرجات لمن أرادها ممن يوفدون اليها ولا يهمهم سوى الحصول عليها من أخصر الطرق ، وهنا أرى أنه تجب التفرقة بين أنواع الدراسات ، فبعضها يحتاج الامر فيه الى ضرورة الحصول على درجة علمية فى بلاد معينة ، وبعضها الآخر تكفى فيه تمضية مدة للمرانة ومتابعة الاعمال . وأرى أن عضو البعثة الذى يمضى سنتين كاملتين فى مزرعة من مزارع امريكا خير له ولبلاده ألف مرة من أن يحصل على « دكتوراه » من بعض كلياتها التى تقوم فى عمارة ولا تتصل بالمزرعه من قريب أو من بعيد ، ولكنى أعود فأقول إن المبعوثين معذورون إذا هم سلكوا كل السبل بقصد الحصول على الشهادة أولا وقبل كل شىء . ذلك لأن الأمر كله لايزال يعتمد فى مصر على تقدير الشهادات ولو لم تصحبها خبرة ولا معرفة . وقد تنبه بعض المسئولين إلى هذه الحقيقة وأدركوا الفائدة من تقرير بعثات عملية لا يشترط فيها الحصول على شهادة ، ولكن المبعوثين الذين يقبلون السفر فى هذه البعثات كثيراً ما يعملون جاهدين للحصول على درجة علمية ، ذلك لأنهم وجدوها السبيل الوحيد الذى يحقق أملهم فى درجة أو ترقية أو علاوة . وبهذه المناسبة أرى ان الوضع القائم يجب أن يتغير ويصبح الأساس فى منح الدرجات العالية وتسوية الحالات بالنسبة للعائدين من أعضاء البعثات لا مجرد حصولهم على الشهادات وإنما كذلك الإنتاج العلمى الذى قد تتهيأ ظروفه وتتوفر أسبابه لكل ذى استعداد .

وانى أذكر آسفا ان بعض المبعوثين ينصرفون عن العمل بعد عودتهم ويضيع وقتهم سدى للمطالبة بحقوق كفلها لهم القانون ، وأحيانا يكون الحصول عليها سهلا ميسرا ، واحيانا أخرى يكون صعبا تقف فى طريقة عقبات كثيرة تقضى على كل أمل للعضو فى حياة كريمة تعودها خارج بلاده فى حدود مرتب عضو البعثة ، ولا بد لنا من مواجهة هذه الحال بحيث يقضى على كل تذمر ويحقق أمل هؤلاء الشبان فى عيشة راضية تطمئن لها نفوسهم حتى لا يفكروا فى غـــير العمل المجدى الذى يعود نفعه على « مصر » ومصر وحـــدها التى هى فى أشد الحاجة إلى جهود بنيها وإخلاصهم لها وتعلقهم بها دون غيرها .

حضرات السادة :

يسرنى أن اختتم محاضرتى بعد أن ضمنتها هذه الوقائع الصحيحة، وتلك النتائج التى لا أظنها تبعد كثيراً عن الحقيقة ، وهى وإن تضمنت بعض الحقائق التى أصابت مرارتها نفوسنا لكنها كما يبدو لى الطريق القويم الذى يجب أن نسلكه فى تصوير حالنا تصويرا صحيحا يتفق والحقيقة حتى ننصرف الى القول الصادق والعمل المجدى الذى نرجوه لبلادنا العزيزة .

وانى إذ أتوجه بالشكر الخالص إلى حضرات رئيس واعضاء مجلس ادارة النادى اذ هيئوا لنا هذا المكان للاجتماع بكم أشكر لحضراتكم تلبيتكم لهذه الدعوة المتواضعة ، وأسأله سبحانه وتعالى ان يلهمنا التوفيق . ويهيء لنا من أمرنا رشدا .

والسلام عليكم ورحمة الله . . .

المرجو من حضرات الأعضاء إرسال صورة فوتغرافية الى النادى الزراعى لتحفظ فى سجلات الجمعية تطبيقا لأحكام قانون النوادى ؟